دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

مقالتان في الصوم الكبير

١. تاريخ الطقس

٢. قدِّسوا صوماً

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

مقالتان في الصوم الكبير

١. تاريخ الطقس

٢. قدِّسوا صوماً

الأب متى المسكين

كتاب:مقالتان في الصوم الكبير:
١. تاريخ الطقس (مارس ١٩٧٠)
٢. قدِّسوا صوماً (مارس ١٩٥٩)
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: مارس ٢٠٠٢
الطبعة الثانية: أبريل ٢٠٠٥
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون
ص. ب ٢٧٨٠ – القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٢/٥١٠٠
الترقيم الدولي ISBN: 977-240-115-0

الصوم الأربعيني

تاريخ الطقس

• في هذا المقال لمحة عن الطقس في وضعه الأصيل، حيث يُعالج الكاتب فيه التاريخ الطقسي لصوم الأربعين المقدس.

✠✧✝✧✠

الصوم الأربعيني المقدس هو من أهم الأصوام وأقدسها وأقدمها، ولا يفوق الصوم الأربعيني أهمية إلاَّ صوم أسبوع البصخة المقدسة.

ومذكور في كتاب مصباح الظلمة عن هذا الصوم:

[وقد كان **الآباء الرسل القديسون الأطهار** ومَنْ تبعهم من المؤمنين يصومون الأربعين المقدسة ثاني يوم الغطاس، وهو ١٢ طوبة. ويُعيِّدون للفصح المجيد في اليوم الثاني والعشرين من أمشير، ويعملون جمعة الآلام بعد ذلك بأيام، التي يختمونها بعيد القيامة. واستمر الحال كذلك إلى أيام الأب القديس البطريرك أنبا ديمتريوس الثاني عشر من بطاركة الإسكندرية... الذي قام بتقرير قاعدة الصوم الأربعيني المقدس كما هي عليه الآن، والتي ظلَّت سارية حتى اليوم، وجعل جمعة الآلام متصلة بالصوم الأربعيني، وحدَّد ميعاد الفصح المجيد].

يُفهم من هذا أن الصوم الأربعيني تقليدٌ رسولي، وهذا بالضبط هو

تعليم كنيسة الإسكندرية منذ زمن بعيد. فالقديس كيرلس الكبير يقول في عظاته بخصوص الصوم المقدس إنه "حسب التقليد الرسولي"، ومِن قبله البطريرك ثيئوفيلس يُقرِّر ذلك أيضاً في خطاباته الفصحية. ولكن لم يكن هذا تعليم كنيسة الإسكندرية فقط. فالقديس جيروم كان يُعلِّم بهذا أيضاً ويقول في تفسيره لسفر إشعياء:

[موسى وإيليا صاما أربعين يوماً، فامتلآ وتأهَّلا للحديث مع الله. وربنا نفسه صام أيضاً أربعين يوماً في البرية ليترك لنا هذا الصوم بأيامه المحدَّدة].

أما في تفسيره لسفر يونان النبي فيقول القديس جيروم:

[ربنا الذي هو يونان الحقيقي إذ أُرسِل ليكرز للعالم، صام أربعين يوماً تاركاً لنا هذا التراث لنصوم هذا العدد المحدَّد حتى نُعدّ نفوسنا للأكل من جسده].

ويعود القديس جيروم فيُقرِّر بوضوح وصراحة في رسالته ٥٤ لمرسيلا أن هذا الصوم تقليد رسولي:

[نحن نحتفظ بهذا الصوم الأربعيني كل سنة حسب التقليد الرسولي].

وحتى بابا روما المدعو "ليو" أو "لاون" (المتسبِّب في النزاع الخلقيدوني المشهور) يقول في عظته السادسة على صوم الأربعين:

[إنه وَضْع رسولي أن يُصام أربعون يوماً كما رسمه الرسل بإلهام الروح القدس].

الملاحَظ أن الأربعين يوماً المقدسة عندما كان يتأمل فيها بعض الآباء القديسين القدامى، كانوا يُقارنونها بعدد الساعات التي قضاها الرب في القبر وهي أربعين ساعة محسوبة من منتصف يوم الجمعة إلى الساعة الرابعة بعد منتصف ليلة السبت، أي أننا نصوم عن كل ساعة قضاها الرب في القبر يوماً كاملاً. وقد ظن بعض المترجمين من هذا أن الآباء كانوا يصومون أربعين ساعة فقط. والحقيقة أن هناك أيضاً صوماً آخر محدَّداً بالساعات دون أرقام في الدسقولية يُصام فيها صوماً كاملاً انقطاعياً بدون أكل أو شُرب، وما يزال مقرَّراً حتى الآن، وهو أثناء أسبوع البصخة، والذي يكون من بعد التناول يوم خميس العهد إلى بعد التناول في قدَّاس عيد القيامة الذي ينبغي أن يكون في فجر الأحد.

ومن الأشخاص الأوائل الذين ذكروا الصوم الأربعيني وأهميته، القديس إيرينيئوس الملقب "أبو التقليد الكنسي". وقد ذكَرَ أنه قديم العهد جداً، ويُراعَى طقسه في أنحاء العالم كله، ويرجع إلى أيام الرسل[١] كما أثبت ذلك يوسابيوس في تاريخه الكنسي ٢٤:٥. وإن كان يذكر أن الأربعين يوماً لم تكن محددة تماماً في كل كنيسة. وإذ نعود إلى مصر، يُقرِّر المؤرخ سوزومين في تاريخه الكنسي ١٩:٧، أنَّ المصريين يصومونه ستة أسابيع أو سبعة أسابيع كاملة (وهذا هو الأصح). ويقول كاسيان الذي عاش راهباً فترة طويلة في براري مصر، إن جملة الأيام الانقطاعية التي كان يصومها المصريون في هذا الصوم

(١) Iren. *Epist. Ad. Vict.*

وحده هي ٣٦ يوماً، مُعلّقاً على ذلك بقوله: "إن الستة والثلاثين يوماً بالتحديد التي هي مجمل أيام الصوم الانقطاعي هي بالنسبة لمجموع أيام السنة وقدرها ٣٦٥ يوماً تُعتبر عُشر السنة"، أي كان في اعتبار آباء مصر أنهم بالصوم الأربعيني يقدِّمون عشور السنة صوماً!!

ونورد هنا ما سجَّله الأب الفاضل القس أبو البركات المعروف بابن كبر في كتابه الجامع لطقوس الكنيسة المعروف بـ "مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة" عن الصوم الأربعيني، لأنها أقوال جزيلة النفع:

– وقد ورد في الفصل العاشر من قوانين آبائنا الرسل ما هذا نصه:

[وأن تصوموا في كل عام أربعين يوماً كما صام موسى وإيليا النبيَّان العظيمان وجميع الأنبياء في العتيقة، وابتدأ سيدنا المسيح بذلك ليُعلِّمنا أن نفعل ذلك قبل آلامه المحيية. **وتمام أيام الصوم بعد ترك السبوت والحدود منها إلى يوم أحد القيامة أربعين يوماً على أن لا يُعَدَّ منها يوما الجمعة والسبت اللذان هما من أيام الصَّلْب والدفن**].

– وقيل أيضاً بعد ذلك:

[يجب عليكم صوم الأربعين يوماً المقدسة وجمعة البصخة المقدسة التي هي **جملتها ثماني جُمَع**].

– وقد قالت الدسقولية:

[فليكن عندكم **جليلاً** صوم الأربعين المقدسة].

وقد كان الصوم الأربعيني المقدس فيما تقدَّم من الأيام يُعمل ثاني

يوم الغطاس كقول الإنجيل: "ولما صعد الرب من الماء للوقت أخرجه الروح إلى البرية ليُجرَّب من إبليس. وصام أربعين نهاراً وأربعين ليلة" (انظر مر ١:١٠-١٣).

وكانت جمعة الآلام تُعمل مُفردة في الوقت المخصَّص بها، كما حدَّده الآباء وقرَّروه ورسموه، حتى يكون الفصح المجيد بعد عيد اليهود بحيث لا يوافقه جملة. ثم استقرت جمعة الآلام بعد ذلك لتكون في آخر الأربعين المقدسة، وقد حسن وضعها وعظم نفعها وصار الناس يعملونها، وقد ارتاضوا رياضة روحانية وجسدانية، وتلطَّفوا بما تقدَّم لهم من الصوم والصلاة، والخشوع والخضوع، وما تكرَّر على مسامعهم من التعاليم والعظات، والميامر والنبوَّات التي تعقل العقول، وتحقِّق التجسُّد السيِّدي بتلك النقول (الآيات المقتبسة من الكتاب المقدس)، وتوطِّن النفوس على تلقِّي الآلام المحيية الواقعة على ناسوته بالتصديق والقبول.

الطقس:

والذي يجب اعتماده أيام الصوم:

١ – أن يجتمع الشعب إلى الكنيسة سحر كل يوم (أي في الفجر).

٢ – يُقرأ أولاً خمسة مزامير قبطياً من سفر داود النبي، ورأس قارئها مكشوف أمام الهيكل.

٣ – ثم يُقدِّمون الصلاة بالأجبية وما يتلوها من قطع.

٤ – تقال تذاكية اليوم، فإذا كان اليوم لحنه واطساً تُزاد هذه الإبصاليات:

Ⲡⲓⲙⲁⲓⲣⲱⲙⲓ ⲛ̀ⲁⲅⲁⲑⲟⲥ..

Ϯⲛⲏⲥⲧⲓⲁ ⲛⲉⲙ ⲡⲓϣ̀ⲗⲏⲗ..

Ⲛⲉⲕⲛⲁⲓ ⲱ Ⲡⲁⲟ̅ⲥ̅..

Ⲡⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ Ⲓ̅ⲏ̅ⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅..

أما في أيام لحن الآدام، فيُقال بعد تسبحة الملائكة:

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉ ⲧⲉⲛϯϩⲟ ⲉⲣⲟ..

٥ ـ وبعد ذلك يُرفع البخور حتى نهاية الأمانة.

٦ ـ ثم تُقرأ النبوّات المختصة بذلك اليوم، قبطي وعربي. وفي نهايتها يقول الكاهن:

Ⲡⲓⲣⲉϥϣⲱⲟⲩ̀ⲛ̀ϩⲏⲧ.

٧ ـ وتبتدئ الأبروسات وكان يقولها الشماس (أما الآن فيقولها الكاهن)، وأولها: "صلُّوا من أجل الأحياء". وبعد كل ثلاث أبروسات يقول: "نحني ركبنا" κλίνωμεν τὰ γόνατα.

فيرد الشعب: "ارحمنا يا الله الآب ضابط الكل" ـ "ارحمنا يا الله مخلِّصنا" ـ "ارحمنا يا الله وأيضاً ارحمنا":

Ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ Ⲫϯ Ⲫⲓⲱⲧ ⲡⲓⲡⲁⲛⲧⲟⲕⲣⲁⲧⲱⲣ.

Ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ Ⲫϯ ⲡⲉⲛⲥⲱ̅ⲣ̅.

Ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ Ⲫϯ ⲟⲩⲟϩ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ.

وبذلك يكون تمام السجدات اثنتي عشرة سجدة.

٨ ـ وبعدها أوشية الإنجيل ويُطرح المزمور، ويُقرأ الإنجيل ويُفسَّر.

٩ ـ يُقرأ من المواعظ ما جرت به عادة كل كنيسة، على أن يُقرأ يوم الجمعة ميمر. وكذلك عشية الأحد، حيث يُختار الميمر ليكون موافقاً للإنجيل. على أن الميامر والمواعظ مستحبة في الصوم كلَّما أمكن ذلك وفي كل وقت.

١٠ ـ تُختم الصلاة كالعادة.

١١ ـ ثم تُصلَّى صلاة السواعي عندما يحلّ ميعاد القدَّاس.

١٢ ـ يبدأ القدَّاس الساعة التاسعة (أي الثالثة بعد الظهر) ليكون فراغه الساعة الحادية عشرة من النهار (أي الخامسة عصراً) بحيث يكون الإفطار وقت الغروب.

وفي أيام الآحاد جرت عادة المصريين أن يُصلَّى بقدَّاس القديس كيرلس الكبير.

قدِّسوا صوماً

■■◆■■

حينما نجاهد للسير في الطريق الضيق، ليت ظل الصليب لا يُفارق شعورنا حتى لا نفقد الصبر أبداً، مهما بلغ بنا الضيق. أما العامل الأساسي لبلوغنا الصبر فهو في ألاَّ نفقد معنى الحب فيما نقدِّمه من فدية.

ولتعلم، يا أخي العزيز، أن المجاهدة في الطريق الضيق تحتمل الوقوع، إما في اليأس كضربة شمال، وإما في الإحساس بالبطولة وإتقان الفضيلة كضربة يمين. ولا يمكن أن نبلغ إلى الحب الصحيح إلاَّ إذا تجنَّبنا هذين الخطرين اللذين يتهدَّدان سيرنا في الطريق الضيق، وهذا يتم إذا عرفنا كيف نغلب أنفسنا لنحقِّق حبنا، فلا نشفق عليها حتى لا نسقط في اليأس، ولا نمتدحها حتى لا نسقط في الإحساس بالبطولة الذي يسميه القديسون: "السُّبح الباطل".

ولو تعمَّقنا جوهر المحبة الإلهية ـ وهو نموذج المحبة التي نريد أن نسير بمقتضاها ـ نجدها لا تتم إلاَّ بإنكار الذات إنكاراً يبلغ التفريط فيها حتى إلى الهلاك(٢)، كما تعلَّمناها في المسيح على الصليب وما قبل

(٢) "إهلاك الذات" يتم بإلغاء مشيئتها، وقبول الموت هو صورة تفصح عن مدى إلغاء المشيئة الذاتية.

الصليب. لذلك، ولكي نساير المحبة، يلزمنا أن نمارس شعور البغضة(٣) لأنفسنا إلى الدرجة التي لا نعود نشفق فيها على ذواتنا ولا على كل ما حسبناه ربحاً من هذا العالم.

والصوم تجربة تنبري فيه الشخصية ضد الذات، وتدريب تُعاني فيه الذات هُجراناً وصدوداً من جانب الإنسان. لذلك يُعتبر الصوم فعلَ محبة بالدرجة الأولى وجزءاً لا يتجزَّأ من اختبار الصليب، ومدخلاً حسيًّا إليه.

الروح القدس ينتعش فينا إذا سرنا بقيادته إلى برية الصوم لمواجهة هلاك الذات جزئياً، على مثال الخروف الذي يُساق إلى الذبح، حيث يكون سر انتعاش الروح فينا أساسه نجاح الإنسان في تكوين صورة للمحبة المذبوحة كتجربة أولى للسير في طريق الصليب حتى النهاية.

وأنت تدرك أن جهد الصوم يقع أولاً على الجسد، والجسد هو المكان المحسوس الذي تنحصر فيه الذات وتُعلن عن طبعها ورغباتها. لذلك حينما نمارس الصوم ونُجهد الجسد، فنحن، بصورة غير مباشرة، نُرهق الذات(٤). فإذا بلغنا إلى إرهاق الذات بتذليل الجسد، نكون قد اقتربنا في الواقع من هلاك الذات ولو "جزئياً".

وهكذا بالصوم نُكمِّل، بصورة ما، وصية الرب: «مَن يُهلِك نفسه

(٣) "بغضة الذات" هي محاولة باطنية لتحرير الشخصية من أَسْر الذات حتى يتمكن الإنسان من أن يتحد بآخر (سواء الله أو إنسان) بواسطة المحبة.

(٤) "إرهاق الذات" بأن تُمارس عملاً لا ترتاح إليه ولا تريده. وهذا يأتي عَرَضاً في الصوم (لأن دافع الصوم الأساسي هو المحبة).

من أجلي فهذا يُخلّصها» (لو ٩:٢٤). ولكن أعود أصحح الكلمة: "جزئياً"، لأننا لابد أن نبلغ إلى حالة قبول هلاك الذات كليًّا، وهذا لا يتم إلاَّ بالنيَّة. أي أنه حينما نبدأ بأي تدريب (كالصوم مثلاً) الذي يضعنا في حالة هلاك جزئي للذات، يلزم أن نكمل هذا الإحساس (أو الارتياح لقبول الهلاك الجزئي) بقبول الهلاك الكلّي للذات، وذلك بتصوُّر قبول الموت نفسه والارتضاء به بغير انزعاج أو مانع: «كان لنا في أنفسنا حُكْم الموت، لكي لا نكون متَّكلين على أنفسنا.» (٢كو ١:٩)

إبراهيم أبونا لَمَّا قدَّم ابنه إسحق، قدَّمه جزئياً بيديه، وقدَّمه كليًّا بالنية. ولَمَّا أوضح إبراهيم تقدمته لابنه وحيده إسحق تقديماً كليًّا بالنية، لم يَدَعْه الله يمارس ذبحه؛ بل اكتفى الله بالتقدمة الجزئية على المستوى الحسي. فاعتبر الله أن إبراهيم ذبح ابنه فعلاً. لذلك، ولذلك فقط، فداه الله، فداه بخروف، رمزاً للمسيح الذي سيفدي النفوس التي تُعلن إهلاك ذواتها جزئياً بالعمل و كليًّا بالنية.

إبراهيم لَمَّا قدَّم إسحق ابنه، استُبدِل إسحق ـ بمقتضى التدبير الإلهي ـ بخروف كتعبير عن هلاك الجسد فداءً للنفس. ونحن في تجربة الصوم أو أي إنكار للذات يقوم على البذل والفدية، نُطالَب ألاَّ نشفق على أنفسنا، ونُطالَب أن يكون تقديمنا لذواتنا وأجسادنا كاملاً بالنية، أي أن نكون راضين حتى حُكْم الموت في أية لحظة، واضعينه في أنفسنا كأساس للحياة.

ولكن الله يقف حارساً يمنع الهلاك من أن يتسرَّب إلى النفس. الله

يفدي النفس: «حيٌّ هو الرب الذي فدى نفسي» (٢صم ٤:٩). المسيح، تبارك اسمه، فدى نفوسنا، فلا خوف البتة ولا انزعاج حينما نواجه تجربة هلاك الذات، كأن نبحث عن خروف عِوَضاً عن أنفسنا، لأن ذلك يعني أن تقديمنا غير كامل، والنية عاجزة متقهقرة. وفي اللحظة التي تصل فيها النية إلى حدِّ التفريط الكلّي في الذات والارتضاء الكلّي بإهلاكها، حينئذ نرى الخروف الوديع الذي رُبط بالشجرة وسُمِّر في الخشبة، يُقدِّمه أبونا الحنون في الوقت المناسب حتى لا يهلك كل مَن أحبه وآمن به.

وهذا تفسيره أنه إذا قدَّمنا شيئاً آخر عِوَض أنفسنا لا يُقبل. إذا تلفَّتنا لنبحث عن خروف نقدِّمه عِوَض الذات، يضيع منَّا الوعد بإسحق إلى الأبد؛ بل يضيع مِنَّا المسيح. فكل مَن عجز عن تقديم حياته كليًّا وانزعج من البذل، وبالتالي من الموت، وتقهقرت فيه النية، ورفض الموت، وراوغ وتحايل وقدَّم تضحية شكلية كخدمة أو عطاء مالي أو حيلة أخرى للانفلات من تقديم النفس، فحينئذ يضيع منه حقه في المسيح كفادٍ، لأن المسيح يفدي من الموت الذين قبلوا الموت.

إذن، يلزمنا أن تكون تجربة هلاك ذواتنا ليس فيها إشفاق ولا ضعف إيمان، ولا تكون ناقصة، ولا ينفع أن نعوِّض عنها لا بالمال ولا بأي شيء في الدنيا ولا بالعالم كله؛ فالنفس أثمن من الجميع. وعِوَض النفس لا يوجد شيء البتة، إلا المسيح، تبارك اسمه، فهو الوحيد الذي ثمَّن نفسه الإلهية بالنفس البشرية تنازُلاً واتضاعاً من قِبَل المحبة الخالقة.

ونعود لنكرِّر أن المسيح ـ تقدَّس اسمه ـ لا يمكن أن يصير فدية

للنفس البشرية، إلاَّ إذا قدَّمها الإنسان على مذبح المحبة موتاً عن العالم تقديماً كاملاً من أعماق نيته، وفرَّط فيها علناً تفريطاً نهائياً، ورفع السكين بيده بتصميم ونية صادقة أنه قَبِلَ الموت.

وكل تجربة وكل جهاد ضد الذات، وكل صوم لا يبلغ فيه الإنسان حدّ التفريط في الذات إلى هذا المستوى، أي مستوى السكين المرفوعة بيد إبراهيم على رقبة إسحق ابنه وحيده، أو مستوى تفريط الله في ابنه حبيبه مُسمَّراً على عود الصليب، فإنه لا يبلغ إلى حدِّ استحقاق الفدية (المسيح) التي أعدَّها الله عِوَضِ النفس المبذولة هكذا؛ بل ولا يعود الجهاد جهاداً، ولا الصوم صوماً على مستوى هلاك الذات كالوصية، وإنما يكون مداعبة للنفس وتثبيتاً لسلطانها.

الرب صام على مستوى عال لأنه كان يحقّق في الجسد وبالجسد ما كان قد أكمله قبل التجسُّد: «أخلى نفسه» (في ٢:٧)، وهو أكمل الإخلاء بصور شتَّى. ولكن كان الصوم أروع مشهد من مشاهد الإخلاء، إذ فيه بذل جسده فعلاً على مستوى سرِّي، لأن تجربة الصوم الذي أكمله بالجوع والعطش الشديد أربعين يوماً، تضمنت نية واضحة صادقة للبذل الكلِّي.

إذن، فالرب قد بذل جسده فعلاً قبل الصليب. وهو حينما قدَّم جسده لتلاميذه في عشاء الخميس، قدَّمه كمصلوب بالإرادة قبل أن يُصلب بأيدي الأئمة، وكمبذول بالنية قبل أن يبذله الحكام. أي أنه لم يَقُل: "خذوا كلوا جسدي الذي يُبذل... وخذوا اشربوا دمي الذي يُسفك"، إلاَّ بناءً على حالة باطنية فيها انتهى المسيح من قضية نفسه،

مُكمِّلاً البذل ومُكمِّلاً السَّفْك بإرادته ونيته، وكأن للصوم شهادة إثبات، لأنه لم يكن سهلاً أن يقول الرب وهو جالسٌ بين تلاميذه يأكل معهم ويشرب: «هذا هو جسدي الذي يُبذَل عنكم... هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُسفك عنكم» (لو ٢٢:١٩و٢٠)، إن لم يكن قد باشر فعلاً هذا البذل وهذا السَّفْك، وإن كان بصورة سرِّية كما في الصوم.

فالرب قد صَلَبَ ذاته للعالم قبل أن يصلبه العالم.

الرب باشر تقديم جسده ـ أي ذاته ـ ذبيحة عن العالم بعد أن اعتمد مباشرة عندما اقتاده الروح، فأطاع بسرور ليواجه تجربة الصوم التي هي المظهر الإرادي الذي يشرح الصليب.

لذلك اعتنى الرب جداً أن يرسم ويُباشر طقس الإفخارستيا قبل الصليب لا بعد القيامة، حتى يوضِّح فعل حرية الذبيحة والبذل.

إن الجسد السرِّي الذي قُدِّم في عشاء الخميس على هيئة خبز وخمر، أعمق معنى عرفه الإنسان عن رؤية غير المنظور في المنظور، وتحقيق المستقبل في الحاضر. وإن كانت النبوَّة في العهد القديم تنحصر في رسم صورة عقلية في ذهن الناس للحوادث المتضمَّنة في المستقبل الغامض؛ فالنبوَّة كما قدَّمها المسيح في العهد الجديد بشارة تحقيق المستقبل في الحاضر، وقبول حسِّي لغير المنظور وغير المحسوس هكذا: "خذوا كلوا... خذوا اشربوا. هذا جسدي... هذا دمي". وأرجو أن تلاحِظ، يا أخي، أنه كان يتبقَّى على الصليب يومٌ كاملٌ حينما قال

هذا. ولكنه رأى الحوادث الآتية أنها وفق مشيئته تماماً، رأى الصليب قائماً وعليه الجسد يُذبح والدم يُسفك، ورأى نفسه راضياً بكل هذا، فأخذ خبزاً وحمَّله سر الجسد المكسور، وخمراً وحمَّله سر الدم المسفوك، وأطعم تلاميذه؛ فأكلوا من يديه سرَّ مشيئته وشربوا سرَّ حبِّه، سر آلامه، سر الخلاص.

لذلك حينما نشترك سراً في الجسد والدم في القدَّاس، فنحن لا نشترك في الصليب فقط؛ بل وفي حياة سرِّية مبذولة، وجسد تمرَّس بالصوم الشديد والحرمان والعوز والألم.

فإذا عبرنا على واحد من تلك المآسي التي تواجهنا كل يوم حينما نشهد للحق، نعتبر أنفسنا شركاء ـ أي مشتركين ـ "مع الذي تُصرُّف فيه هكذا" (عب ١٠:٣٣)، فلا نخور في أنفسنا؛ لأن شركة الجسد والدم تعبير ضمني لشركة كليَّة في حياة المسيح الحافلة بالتجارب والأصوام والآلام.

تقدمة الرب يسوع لجسده يوم الخميس، كمبذول بالإرادة المحقَّقة سابقاً وقبل أن يُصلب يوم الجمعة، كانت قدوة استمدها الرب من واقع حياته. حتى أن الصليب بنفسه كان تعبيراً عن حقيقة كائنة وواقع، فيسوع صَلَبَ نفسه للعالم قبل أن يصلبه العالم، الصليب حسب الظاهر جاء كآخر عمل عمله الرب، مع أنه كان موضوع حياته كلها، وقد بدأ بتجربة الصوم، لَمَّا بذل جسده بالجوع ودمه بالعطش أربعين يوماً كاملاً.

موسى صام أربعين يوماً مثلها، ولكن في سبيل أخذ الشريعة والناموس، أي كلمة الله المكتوبة.

إيليا صام أيضاً أربعين يوماً، ولكن ليستحق رؤية الله والتقابُل معه. فصوم موسى وإيليا كان ربحاً لهما وللبشرية. أما الرب يسوع فصام لا ليأخذ شيئاً، وإنما ليُعطي نفسه عطاءً حُرًّا بالإرادة كاستعلان سابق لبذل الصليب.

ونحن نصوم، لا لنأخذ شيئاً ولا لنُعطي شيئاً، لأننا أخذنا المسيح، وبالمسيح أخذنا كل شيء قبل أن نصوم بل قبل أن نولَد.

كذلك نحن نصوم، لا لنُعطي شيئاً، لأن عطاءنا مهما بلغ ولو إلى حدِّ الموت، فإنه لا ينفع أن يرفع حتى ولا خطيئة واحدة. ويستحيل أن يبلغ صومنا إلى قياس الفدية، كأن نبذل أجسادنا ودماءنا بالجوع والعطش لنفدي ولو أصغر نفس في البشرية، بل ولا نفسنا أيضاً. لماذا؟ لأن الخطيئة التي فينا تعطِّل الفدية وتلغي قوة البذل.

إذن، فماذا يكون صومنا؟

نحن نصوم ونُقدِّم أجسادنا كذبيحة، مظهرها تحمُّل التعب، وجوهرها قبول الموت بالنية، لنُحسب أهلاً أن نتحد سراً في جسد المسيح ودمه؛ وحينئذ نصير في ذبيحة المسيح ذبيحة طاهرة قادرة في مفعولها للشفاعة والفدية.

لذلك يلزم أن ينتهي الصوم، الذي هو البذل الناقص بسبب الخطيئة، بالتناول أو بالشركة في الجسد والدم الطاهرين، ليصير بذلاً

كاملاً وقادراً على الصلاة والشفاعة. لذلك نجد أن كل تناول من الجسد والدم يسبقه صوم، وكل صوم يلزم أن ينتهي بالتناول. وفي مثل هذا التناول تحل الشفاعة، إذ تكمل ذبيحتنا ويكمل بذلنا: "صلوا من أجل التناول باستحقاق... اطلبوا عنَّا وعن كل المسيحيين" (القداس الإلهي).

نحن في صوم الأربعين نمهِّد أنفسنا لعشاء الخميس، لأننا نُهيئ المثيل للمثيل، لأن الذي لم يبذل نفسه كيف يكون مستحقاً لشركة الذي بذل حياته؟ وإذا أكلنا جسداً مبذولاً ونحن لم نبذل أنفسنا، كيف ندَّعي الاتحاد؟

أما شركة العشاء السرِّي يوم الخميس ـ الذي هو قبول حياة البذل بالنية ـ فهو تمهيد لقبول الآلام علناً إلى الموت.

وهكذا، في كل مرة نأكل من الجسد ونشرب من الدم نحن نتهيَّأ سراً للبشارة بموت الرب والاعتراف بقيامته. وكل شهادة بموت الرب وقيامته تحمل استعداداً للاستشهاد، وكل استشهاد يحمل قيامة.

يطلب من :
دار مجلة مرقس
القاهرة : ٢٨ شارع شبرا – ت ٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية : ٨ شارع جرين- محرم بك – ت ٤٩٥٢٧٤٠
أو من مكتبة الدير
أو من موقع الدير على الإنترنت
www.stmacariusmonastery.org

• الملاحظ أن الأربعين يوماً المقدسة عندما كان يتأمل فيها بعض الأباء القديسين القدامى، كانوا يُقارنونها بعدد الساعات التي قضاها الرب في القبر وهي أربعين ساعة محسوبة من منتصف يوم الجمعة إلى الساعة الرابعة بعد منتصف ليلة السبت، أي أننا نصوم عن كل ساعة قضاها الرب في القبر يوماً كاملاً.

• الروح القدس ينتعش فينا إذا سرنا بقيادته إلى برية الصوم لمواجهة هلاك الذات جزئياً، على مثال الخروف الذي يُساق إلى الذبح، حيث يكون سر انتعاش الروح فينا أساسه نجاح الإنسان في تكوين صورة للمحبة المذبوحة كتجربة أولى للسير في طريق الصليب حتى النهاية.

